أحمد السيد النجار محمد عب

# هل يموت الأدب ؟

16 يناير 2016

**ابراهيم فتحى**

يكتب بعض النقاد في الغرب أن التليفزيون وغيره من الوسائل الإلكترونية يحل محل الكتاب المطبوع وخاصة في صورته المتجسدة أساسًا في الأعمال الأدبية، ويعلو الزعم بموت الرواية بعد أن كان العصر عصر الرواية. وأمسى الشعر أكثر انشغالا بدواخل الذوات، وصار المسرح موجهًا إلى نخب ضيقة مقارنة بالفيلم.

وتفلسف النقد الأدبي واتصف بالبيزنطية المنعزلة. ولا يوجد خارج أقسام الجامعات. وحلت محل الأدب عمومًا كتابات الترويح والتسلية، كما أن عدد طلبة الأدب والمتخصصين فيه يتناقص بشدة. ويلاحظ الآن أن الأدب الرفيع يتضاءل عدد قرائه ويكاد أن يكون بعيدًا عن الجماهيرية. ويعلن نقاد الأدب عن نظرية موت المؤلف الذي يتحول إلى كائن افتراضي، إلى ضفيرة من الأصوات المتعددة وليس مصدرًا تعبيريًا للعمل، إلى جامع مقتبسات.

ويكثر المتشككون فيما إذا كانت معظم كلاسيكيات الأدب التي كتبها «رجال بيض موتى» لا تعبر إلا عن ماضي مركزية أوروبية انتهت ومجتمع أبوي زال. ومن الواضح أن النشاط الأدبي

محصور في المعاهد الدراسية كما جاء في كتاب «موت الأدب» ترجمة الكاتب الكبير بدر الديب. وهناك من يقولون إن العلوم الطبيعية والرياضيات والعلوم الاجتماعية والنفسية لا تترك للأدب احتياجًا. إلا أن هناك رفضًا لمقولة موت الأدب يؤكد أن العلوم والأدب وجها عملة واحدة، كما أن العلوم لا تلغي ما يقدمه الأدب إلى معرفتنا بالطاقة الإنسانية الكلية أو سيطرتنا عليها، فهناك بصر بها عند هوميروس وشيكسبير ودوستويفسكي يضيف إلى معادلات العلوم وكذلك عند بروست في الوراثة وعند ستاندال في الصيغة الاجتماعية للدوافع السياسية.

فالأدب يرتاد ويتأمل الواقع الإنساني ويعيد تشكيله على نحو فريد ويبحث فيه عن المعنى. وينفرد الأدب بارتياده وتنوعه وتركيبه؛ تجربة مجموعة أفراد وتصوير تجربة الفرد في الجماعة والفرد في صلته بالطبيعة وإعادة تشكيل نسيج هذه التجارب. كما أن البشر ينظرون من خلال الأدب إلى الحياة نظرة درامية بكل تعمق (تجمع الفاعلية والصراع) عن طريق صلتهم الفريدة وصلة الأدب الفريدة باللغة.

والأدب أكثر الفنون حيوية ولا يوجد فن آخر يجسد الإحساس بالحياة على نحو كلي شامل بأبعادها الكثيرة. وعندما يضرب بجذوره في زمن ومكان محددين فإنه يتجاوزهما حتى يتحدث عن إنسانيتنا العامة. وهو يعمق معرفتنا بأنفسنا وصلاتنا بالآخرين. إنه انعكاس لكل الإحساس بالتجارب الإنسانية الكلية على نحو أقرب مما يحققه أي إبداع آخر. والمجتمع الذي يتجاهل الأدب لا يكون له أقل فرصة في إدراك شيء من تكامل التجربة الإنسانية وكليتها لأنه يتعامل دومًا مع صورة الإنسان وسلوكه ودوافعه، وإن تناول الأخلاق لا يصير موعظة بلاغية. وهو ليس وثيقة اجتماعية أو تاريخية وليس تأملا فلسفيًا. ويحمل الأدب نوعًا خاصًا به من المعرفة يتميز به عن العلم، يصور ما يمكن (يحتمل الوقوع) وما يجمع بين صفة العمومية حينًا والخصوصية حينًا آخر والإمكان دائمًا، فهو أكثر عمومية من التاريخ والسيرة ولكنه أكثر خصوصية من علم

النفس أو الاجتماع، ويستطيع أن يعلمنا عن الطبيعة البشرية أكثر مما نتعلمه من علماء النفس في الكشف عن الحياة الباطنية ودوافعها، فالحاجة إلى الأدب لا يشبعها بديل آخر كما يؤكد الدكتور محمود الربيعي.

وبالنسبة للنقد الأدبي هناك مجال متسع للناقد الأكاديمي ليحاول شرح أعمال الماضي الأدبية وتوجيه الاهتمام بها دون اعتبار لأهميتها المعاصرة. وهناك مجال متسع للناقد الصحفي الذي يهمه أساسًا ما هو واقع فعلاً. وفي المجلات الأسبوعية يطرد زحام الموضوعات فيها الأدب والتعليق عليه خارجها، أما المقالات الأدبية التي تنشرها وهو النقد المتاح للقارئ العام فهو لا يزيد عن أن يكون نقدًا خاطفًا متعجلاً. ويتجه كل أدب الماضي إلى أن يصبح في دائرة اختصاص الأكاديمي والأدب الجاري إلى أن يصبح في دائرة اختصاص الناقد الصحفي، ويعاني الأدب من هذا الانشقاق، فالأكاديمي يعاني من تقوقعه وانحصار جمهوره في طلبته بعيدًا عن العالم المتعلم الواسع، كما قد ينحصر الصحفي في بعض مثيرات اللحظة الحاضرة.

ويتصف النقد الأكاديمي بالتقنية المتطورة مما يعزله عن القراء العاديين. وفي النقد الصحفي خفة مفروضة تحاول أن تدخل في منافسة مع أعمدة الثرثرة أو صفحات الموضة وذلك يصيبهما معًا بالنقص ويعزلهما عن القراء. وهناك من يتحدثون عن أزمة قراءة تحيط بالأدب ولكنه يظل حيًا متطورًا لأن له وظائف إنسانية لا يحققها سواه، فهو يزيد من فهمنا للإنسان لاعتماده على طاقة الذهن والخيال التي تنطلق من استعمال الكلمات استعمالاً خلاقًا ممتعًا. والإبداع الأدبي في الشعر مثلا يجمع الصوت إلى الإحساس ويضيف إلى العاطفة والفكر ما يقترب من الموسيقى.

ولا تهتم الأذن المصرية بالإصغاء إلى كابوس موت الأدب، فالأدباء في مصر التي عرفت ثورتين يمارسون ما يشبه ثورة روائية وقصصية، والشعراء يجددون في تقنيات الشعر، والدراسات النقدية تتوالى وتحفل بالتجديد والإضافة.